المخدرات والمباضع

« هو متطرف بمبادئه حتى الجنون »

« هو خيالى يكتب ليفسد أخلاق الناشئة »

« لو اتبع الرجال والنساء المتزوجون وغير المتزوجين آراء جبران في الزواج لتقوضت أركان العائلة وانهدمت مبانى الجامعة البشرية وأصبح هذا العالم جحيما وسكانه شياطين »

« قهرا عما لأسلوبه الكتابى من الجمال فهو من أعداء الانسانية »

« هو فوضوى كافر ملحد ونحن ننصح لسكان هذا الجبل المبارك بأن ينبذوا تعاليمه ويحرقوا مؤلفاته لئلا يعلق منها شئ على نفوسهم »

« قد قرأنا له الأجنحة المتكسرة فوجدناها السم في الدسم »

*
* *

هذا بعض ما يقوله الناس عنى وهم مصيبون ، فأنا

متطرف حتى الجنون ، أميل الى الهدم ميلى الى البناء ،وفي قلبي كره لما يقدسه الناس وحب لما يأبونه ، ولو كان بامكانى استئصال عوائد البشر وعقائدهم وتقاليدهم لما ترددت دقيقة أما قول بعضهم أن كتاباتى سم فى دسم فكلام يبين الحقيقة من وراء نقاب كثيف ـ فالحقيقة العارية هى أننى لا أمزج « السم » بالدسم بل أسكبه صرفا . . غير أننى أسكبه فى كؤوس نظيفة شفافة

أما الذين يعتذرون عنى أمام نفوسهم قائلين « هو خيالى يسبح مرفرفا بين الغيوم » فهم الذين يحدقون بلمعان تلك الكؤوس الشفافة منصرفين عما فى داخلها من الشراب الذى يدعونه « سما » لان معدَهم الضعيفة لا تهضمه

قد تدل هذه التوطئة على الوقاحة الخشنة ، ولكن أليست الوقاحة بخشونتها أفضل من الخيانة بنعومتها ؟ ان الوقاحة تظهر نفسها بنفسها أما الخيانة فترتدي بملابس فصلت لغيرها

* * *

يطلب الشرقيون من الكاتب أن يكون كالنحلة التى تطوف مرفرفة فى الحقول جامعة حلاوة الأزهار لتصنع منها أقراصاً من العسل

أن الشرقيين يحبون العسل ولا يستطيبون سواه مأكلا وقد أفرطوا بالتهامه حتى تحولت نفوسهم الى عسل تسيل أمام النار ولا تتجمد الا اذا وضعت على الثلج

ويطلب الشرقيون من الشاعر أن يحرق نفسه بخوراً أمام سلاطينهم وحكامهم وبطاركتهم . وقد تلبد فضاء الشرق بغيوم البخور المتصاعدة من جوانب العروش والمذابح والمقابر ولكنهم لا يكتفون . ففى أيامنا هذه مداحون يضارعون المتنبي ، ورائون يضاهون الخنساء ، ومهنئون أكثر طلاوة من صفى الدين الحلى

ويطلب الشرقيون من العالم أن يبحث فى تاريخ آبائهم وجدودهم ، متعمقاً بدرس آثارهم وعوائدهم وتقاليدهم صارفاً أيامه ولياليه بين مطولات لغاتهم واشتقاقات ألفاظهم ومبانى معانيهم وبيانهم وبديعهم

ويطلب الشرقيون من المفكر أن يعيد على مسامعهم ماقاله بيدبا وابن رشد وافرام السرياني ويوحنا الدمشقي وأن لا يتعدى بكتاباته حدود الوعظ البليد والارشاد السقيم وما يجئ بينهما من الحكم والآيات التي اذا ماتمشى عليها الفرد كانت حياته كالاعشاب الضئيلة التي تنبت في الظل ونفسه كالماء الفاتر الممزوج بقليل من الافيون

وبالاختصار فالشرقيون يعيشون في مسارح الماضي المغابر ويميلون الى الامور السلبية المسلية المفكهة ويكرهون البادئ والتعاليم الايجابية المجردة التي تلسعهم وتنبههم من رقادهم العميق المغمور بالاحلام الهادئة

***

انما الشرق مريض قد تناوبته العلل وتداولته الأوبئة حتى تعود السقم وألف الألم وأصبح ينظر الى أوصابه وأوجاعه كصفات طبيعية بل كخلال حسنة ترافق الأرواح النبيلة والأجساد الصحيحة فمن كان خالياً منها عد ناقصاً محروماً من المواهب والكمالات العلوية

وأطباء الشرق كثيرون يلازمون مضجعه ويتآمرون فى شأنه ولكنهم لا يداوونه بغير المخدرات الوقتية التى تطيل زمن العلة ولا تبرئها

أما تلك المخدرات المعنوية فكثيرة الانواع متعددة الاشكال متباينة الالوان . وقد تولد بعضها من بعض مثلما تناسخت الأمراض والعاهات بعضها عن بعض. وكلما ظهر فى الشرق مرض جديد يكتشف له أطباء الشرق مخدراً جديداً .

وأما الاسباب التى آلت الى وجود المخدرات فعديدة أهمها استسلام العليل الى فلسفة القضاء والقدر المشهورة ، وجبانة الأطباء وخوفهم من تهييج الألم الذى تحدثه الادوية الناجعة .

واليك أمثلة من تلك المخدرات والمسكنات التى يتخذها الأطباء الشرقيون لمعالجة الأمراض العائلية والوطنية والدينية .

ينفر الرجل من زوجته والمرأة من بعلها لأسباب

وضعية حيوية فيتخاصمان ويتضاربان ويتباعدان ولكن لايمر يوم وليلة حتى يجتمع أهل الرجل بأهل زوجته فيتبادلوا الآراء المزخرفة والأفكار المرصعة ثم يتفقوا على ايجاد السلام بين الزوجين فيأتون بالمرأة ويستهوون عواطفها بالمواعظ الملفقة التى تخجلها ولا تقنعها ثم يستدعون الرجل ويغمرون رأسه بالأقوال والأمثال المزركشة التى تلين أفكاره ولا تغيرها . وهكذا يتم الصلح — الصلح الوقتى — بين الزوجين المتنافرين بالروح فيعودا قهرا عن ارادتهما الى السكنى تحت سقف واحد حتى « يبوخ » الطلاء ويزول تأثير المخدر الذى استخدمه الأهل والانسباء فيعود الرجل الى اظهار نفوره ومقته والمرأة الى ازالة النقاب عن تماستها . غير ان الذين أوجدوا الصلح فى المرة الأولى يوجدونه ثانية ومن يرتشف جرعة من المخدرات لا يأبى شرب كأس دهاق

يتمرد قوم على حكومة جائرة أو على نظام قديم فيؤلفون « جمعية اصلاحية » ترمى الى النهوض والانعتاق فيخطبون بشجاعة ويكتبون بحماسة وينشرون « اللوائح

والبرامج » ويبعثون « الوفود والممثلين » ولكن لايمر شهر أو شهران حتى نسمع بان الحكومة قد سجنت رئيس الجمعية أو عهدت اليه بوظيفة أما الجمعية « الاصلاحية » فلا نعود نسمع عنها شيئاً لان أفرادها قد تجرعوا قليلا من المخدرات المعهودة وعادوا الى السكينة والأستسلام

تمرد طائفة على رئيس دينها لأمور أولية فتنتقد شخصه وتنكر أعماله وتتبرم من مآتيه ثم تهدده باعتناقها مذهبا آخر أقرب الى العقل وأبعد عن الأوهام والخرافات ولكن لايمر ردح من الزمن حتى نسمع بان عقلاء البلاد قد أزالوا الخلاف بين الراعى ورعيته وارجعوا بفضل المخدرات السحرية الهيبة الى شخص الرئيس والطاعة العمياء الى نفوس المرؤوسين العقوقين :

يتظلم مغلوب ضعيف من ظالم قوى فيقول له جاره « اسكت فالعين التى تعاند السهم تفقر »

يشك القروى بتقى الرهبان واخلاصهم فيقول له

زميله « اصمت فقد جاء فى الكتاب اسمعوا أقوالهم ولا تفعلوا أفعالهم »

يعرض التلميذ عن استظهار مباحث البصريين والكوفيين اللغوية فيقول له استاذه « ان الكسالى المتوانين يختلقون لنفوسهم أعذار أقبح من الذنوب »

تمتنع الصبية عن اتباع عوائد العجائز فتقول لها والدتها « ليست الابنة أفضل من أمها فالطريق التي سلكتها تسلكينها أنت أيضاً »

يسأل الشاب مستفسرا معانى الزوائد الدينية فيقول له الكاهن « من لا ينظر بعين الإيمان لا يرى فى هذا العالم سوى الضباب والدخان »

وهكذا تمر الأيام أثر الليالى والشرقي مضطجع على فراشه الناعم . يستيقظ دقيقة عند ما تلسعه البراغيث ثم يعود ويهجع جيلا بحكم المخدرات التى تمازج دمه وتسير فى عروقه فاذا ماقام رجل وصرخ بالنائمين وملأ منازلهم ومعابدهم ومحاكمهم بالضجيج يفتحون أجفانهم المطبقة

بالنعاس الأبدى ثم يقولون متثائبين « ماأخشنه فتى لاينام ولا يدع الناس أن يناموا » ثم يغمضون عيونهم ويهمسون فى آذان أرواحهم « هو كافر ملحد يفسد أخلاق الناشئة ويهدم مبانى الأجيال ويرشق الأنسانية بالسهام السامة »

* * *

قد سألت نفسى مرات ما اذا كنت من المستيقظين المتمردين الذين يأبون شرب المخدرات والمسكنات . فكانت نفسى تجيبنى بكلمات مبهمة ملتبسة . ولكننى لما سمعت الناس يحدقون على اسمى ويتأففون من مبادئى أيقنت بحقيقة يقظتى وعلمت أننى لست من المستسلمين الى الأحلام اللذيذة والخيالات المستحبة بل من أولئك المستوحدين الذين تسيرهم الحياة على سبل ضيقة مغروسة بالأشواك والازهار محفوفة بالذئاب الخاطفة والبلابل المترنمة

ولو كانت اليقظة فضيلة لمنعنى الاحتشام عن ادعائها ولكنها ليست بفضيلة بل حقيقة غريبة تظهر على حين غفلة للأفراد المستوحدين وتسير امامهم فيتبعونها قسر

إرادتهم مجذوبين باسلاكها الخفية محدقين بمعانيها المهيبة

وعندى أن الاحتشام فى اظهار الحقائق الشخصية هو نوع من الرياء الأبيض المعروف عند الشرقيين باسم التهذيب

*
* *

غداً يقرأ « الأدباء المفكرون » ما تقدم فيقولون متضجرين « هو متطرف ينظر الى الحياة من الوجهة المظلمة فلا يرى غير الظلام وقد طالما وقف فينا نادباً نائحاً باكياً علينا متأوهاً لحالنا »

فلهؤلاء الأدباء المفكرين أقول — أنا أندب الشرق لأن الرقص امام نعش الميت جنون مطبق

أنا أبكى على الشرقيين لأن الضحك على الأمراض جهل مركب

أنا أنوح على تلك البلاد المحبوبة لأن الغناء امام المصيبة العمياء غباوة عمياء

أنا متطرف لأن من يعتدل باظهار الحق يبين نصف

الحق ويبقى نصفه الآخر محجوباً وراء خوفه من ظنون الناس وتقولاتهم

أنا أرى الجيفة المنتنة فتشمئز نفسى وتضطرب أحشائى ولا أستطيع أن أجلس قبالتها وفى يمينى كأس من الشراب وفى شمالى قطعة من الحلوى

فان كان هناك من يريد أن يبدل نوحى بالضحك ويحول اشمئزازى الى الانعطاف وتطرفى الى الاعتدال فعليه أن يرينى بين الشرقيين حاكما عادلا ومتشرعاً مستقيما ورئيس دين يعمل بما يعلم وزوجاً ينظر الى امرأته بالعين التى يري بها نفسه

ان كان هناك من يريد أن يشاهدنى راقصاً ويسمعنى مطبلا ومزمراً فعليه أن يدعونى الى بيت العريس لا أن يوقفنى بين المقابر .